المحاضرة الخامسة بعنوان

الدراسات الاجتماعية عند العرب (ابن خلدون) الجزء الأول

عناصر المحاضرة:

1- ضرورة قيام علم جديد.

2- كيفية وصوله إلى علم الاجتماع وفهمه ظواهره.

3- موضوع علم العمران وفروعه وأغراضه.

4- أسس الدراسة ومنهج البحث.

ابن خلدون

ابن خلدون: هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين بن خلدون الحضرمي، ولد في تونس 732هـ وتوفي بمصر سنة 808هـ، (1332م-1406م).

يعتبر ابن خلدون من أعظم مفكري القرن الرابع عشر الميلادي، وكان رجل بلاط وسياسة خدم ملوكاً كثيرين، وقام بأسفار ورحلات واتصل بشخصيات كثيرة وعاصر حوادث معقدة مما كان له أثره في حياته وفى بحوثه ودراساته، وكان فوق ذلك رجلا داعية وافر الذكاء يمتاز بذهنية دقيقة وقوة ملاحظة على التحصيل والإنتاج وكان واقعياً في اتجاهاته العلمية ولذلك جاءت دراساته اقرب إلى حقائق الأمور وأقرب إلى حقيقة المسائل المدروسة.

استعرض ابن خلدون كتب المؤرخين قبله ونفذها وصور مدى الانحطاط الذى نزل بالتاريخ ووجد أن الحاجة ماسة إلى كتاب جامع شامل لكتابة التاريخ على أساس جديد ومبادئ جديدة ومنهج جديد، يقوم على الشرح والتحليل وتحليل الحوادث وقد أدى به هذا المنهج إلى نوع جديد من الفلسفة هي الفلسفة الاجتماعية وانتهى به إلى تقرير ضرورة قيام علم جديد هو علم العمران الذى نسميه حديثاً بعلم الاجتماع.

أولاً: كيفية وصوله إلى علم الاجتماع وفهمه لظواهره.

قرأ ابن خلدون تاريخ العالم ولاسيما العالم الإسلامي وأرشدته دراسة هذا التاريخ إلى أن ما يحدث في العالم من ظواهر اجتماعية لا يسير حسب الأهواء والمصادفات ولا وفق إرادة الأفراد وإنما يسير وفق قوانين مطردة ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى وهذا ما حمله على أن يرفض كثيراً من الروايات التاريخية التي لا تتفق مع هذه القوانين.

لقد أيقن ابن خلدون:

أن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، ولكن في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق.

فالطريقة التي تمحص بها الوقائع ترجع عند ابن خلدون إلى أصل واحد هو وجوب البحث بطريقة نظرية عما إذا كانت واقعة من الوقائع وممكنة في ذاتها وعما إذا لم تكن مناقضة لطبائع العمران وعما إذا كانت متفقة مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما.

ولذلك يقول ابن خلدون:

"أن القانون في تمييز الحق من الباطل في الإخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذى هو العمران وتمييز ما يلحقه من الأحوال لذاته"

ويقرر فضلا عن ذلك "أن هذا النظر في الاجتماع البشري وما يشمله من الظواهر ينبغي أن يكون موضوعا لعلم جديد هو علم العمران"

يعد ابن خلدون أول مؤسس لهذا العلم الجديد والذي سمّاه:

- علم العمران البشري أو الاجتماع الإنساني. - وهو ما يطلق عليه اليوم "علم الاجتماع".

لقد حدد إطار هذا العلم في مقدمة كتابه الشهير:

(ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)

والذي نعرفه بـ "مقدمة ابن خلدون" وهذه المقدمة عبارة عن كتاب تاريخي

ومن هنا نرى أن ابن خلدون هو أول عالم يقرر في صراحة ووضوح نشأة هذا العلم الجديد واستكماله الخواص المنطقية التي يجب توافرها في كل علم من حيث الموضوع والمنهج والغاية التي يقصد إليها.

ولا ينكر ابن خلدون أن كثيرا من المسائل التي يعالجها هذا العلم قد عرضت لها طائفة من العلوم والدراسات الأخرى ولكنها لم تدرس بنفس الطريقة التي يعنيها ولا لنفس الغرض الذى يقصد إليه وهذه نقطة لها أهميتها في تمييز علم الاجتماع عن غيره من العلوم الأخرى.

ولا يكتفي ابن خلدون بأن يقرر أن المجتمع حقيقة يجب أن تدرس وأن علم الاجتماع هو الذي يدرس المجتمع البشري وما يلحقه من العوارض بل يحاول أكثر من ذلك أن يحلل الضرورة الاجتماعية ويكشف عن الدعائم التي تقوم عليها.

فيقول: "أن الاجتماع الإنساني ضرورة لأن الإنسان مدني بطبعه".

ويسير في شرح هذه القضايا على وتيرة من سبقه من المفكرين كأرسطو والفارابي، ويقرر أن عدم كفاية الفرد يدفعه إلى التعاون والاشتراك في حياة الجماعة ومن ثم ينشأ التضامن الذى يعتبر أقوى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع. وهذا ما فطر عليه الإنسان من شعور نحو الجماعة يدفعه إلى الاستئناس بغيره، ليستكمل بذلك خواصه النوعية والجنسية فضلا عن حاجاته الضرورية.

وبدأ ابن خلدون بحوثه بدراسة العوامل التي ترجع إليها نشأة الحياة الاجتماعية وهي في نظره ثلاثة عوامل:

1- الضرورة الطبيعية.

2- الشعور الفطري الذى زودت به الإنسانية لتحقيق الحياة الاجتماعية.

3- ميل الفرد ورغبته الخاصة في تحقيق فكرة الجماعة.

1- الضرورة:

وهذه الضرورة طبيعية غير أن لها مظهرين وهما:

ضرورة اقتصادية لأن الفرد لا يستطيع أن يحصل على حاجاته إلا بالاجتماع، وضرورة دفاعية لأن الصراع الدائم بين البشر وبين الحيوانات المتوحشة أدى إلى الاجتماع والتعاون للاحتماء والقضاء على الصراع المشترك.

2- الشعور الفطري الذى زودت به الإنسانية لتحقيق الحياة الاجتماعية:

فالإنسان مزود بشعور فطرى تلقائي يدفعه إلى الاستئناس بأخيه الإنسان، وابن خلدون إذ يدخل هذه الظاهرة السيكولوجية في تكوين المجتمع ويعتبرها عاملا قويا في قيام الحياة الاجتماعية، يكون قد جاوز النظرية المادية التاريخية الحديثة التي تعتبر الضرورة الاقتصادية فحسب هي أساس المجتمع وأن كل ما يجرى على مسرح الحياة الاجتماعية إنما يرجع في أصوله ومبادئه إلى الظواهر المادية والاقتصادية على وجه الخصوص.

3- ميل الفرد ورغبته الخاصة في تحقيق فكرة الجماعة:

أي لابد من تدخل جانب الإرادة وإلا كانت الحياة الاجتماعية سلسلة من العدوان والاضطرابات، وإذ كانت الضرورة الطبيعية والنزعة التلقائية المفطور عليها الفرد قد أمنت الإنسان من المواد المفترسة وضمنت له حفظ النوع والإبقاء على الحياة فإن الرغبة والإرادة الفردية من ناحيتها تؤمن الفرد من أخيه وتدفع عدوان بعضهم على البعض الآخر فيستقر بذلك السلام ويعم الأمن.

لكنها جميعا ضرورات طبيعية لنشأة المجتمع

ضرورة التعاون: لا يمكن العيش في الحياة إلا بالتعاون مع الآخرين سواء بالحياة أو بالتعليم أو نواحي سياسية، اجتماعية، دفاعية، أخلاقية.

الضرورة الدفاعية: لتوفير الحماية البشرية، فلابد لقيام مجتمع من ضرورة دفاعية للدفاع سواء عن أفكار أو أديان في أي مجتمع من المجتمعات.

ضرورة السلطة لدرء العدوان بين الناس: من اجل النظام ولعدم إشاعة الفوضى ووقوع الجريمة أو التعدي على الآخرين.

ضرورة الاستئناس بالغير وهو شعور تلقائي طبيعي.

ضرورة الحياة الجمعية، ميل الفرد التلقائي بالفطرة للمشاركة في الحياة الاجتماعية.

وهذه خاصية يمتاز بها علم الاجتماع على العلوم الأخرى، خاصة العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائي، التي تعالج موضوعات مستقرة.

إن موضوع علم الاجتماع هو "بنو الإنسان في وجودهم الذي يقوم على الاعتماد المتبادل".

إن وحدة موضوع علم الاجتماع تتمثل في فردين يكونان معا علاقة بشكل ما.

ومتى نشأ المجتمع على الصورة التي ذكرناها فإنه يكون مسرحا لطائفتين من الظواهر هما:-

- الطائفة الأولى هي الظواهر الطبيعية: - والطائفة الثانية هي الظواهر الاجتماعية:

hadeel alnafea

الطائفة الأولى هي الظواهر الطبيعية

والمجتمع بصدد هذه الظواهر لا يخلقها ولا ينشئها ولكنه يجدها مستقلة عنه بطبيعتها فتؤثر فيه ويتأثر بها ويخضع لنتائجها ويكيف نفسه تبعا لمؤثراتها، ويرجع أهم هذه الظواهر إلى الوسط الطبيعي الذى يحيط بالمجتمع من بيئة وعوامل مناخية والجنس الذى يتكون منه المجتمع والدين الذى يدين به، وقد غالى ابن خلدون في تقدير أثار هذه الظواهر على الحياة الاجتماعية بشكل يؤخذ عليه.

والطائفة الثانية هي الظواهر الاجتماعية

والمجتمع بصدد هذه الظواهر يخلقها خلقا وينشئها إنشاء، وقد فطن ابن خلدون إلى أن هذه الظواهر لا توجد منفصلة بل تكون كلا متماسك الأجزاء ووحدة حية تتفاعل عناصرها وتشتبك آثارها فينتج عن ذلك ما نسميه بالدوافع والتيارات الاجتماعية، وما أشبه هذه الظواهر بفروع الشجرة المتناثرة في الفضاء والتي يجمعها جذع واحد هو المجتمع فيؤلف بينها ويكون منها عصبا واحد ا تستمد غذاءها منه، ولا نستطيع أن نفصل أي فرع منها إلا إذا ألحقنا ضررا بليغا بهذه الشجرة.

الظواهر التي تحيط بالإنسان في المجتمع: غير مستقلة عن بعضها البعض وتؤثر الواحدة بالأخرى: كالظواهر التربوية والاقتصادية والسياسية

الظواهر الطبيعية: وهي من خلق الطبيعة مثل الجنس - الدين المناخ

الظواهر الاجتماعية: وهي من خلق المجتمع مثل النظم - لتيارات - الاتجاهات

هذه هي أفكار ابن خلدون الرئيسية بصدد نشأة علم الاجتماع وطبيعة المجتمع.

وفكرته الأساسية واضحة: وهي أن حياة المجتمع تعطينا مادة لعلم موضوعي، فليس ثمة شيء اسمه مصادفة في الأعمال والظواهر الجماعية.

وما نسميه المصادفة ما هي إلا الأسباب الخفية التي يتعين على علم الاجتماع كشفها وتحليلها.

ومما يدل على وضوح فكرة المجتمع في ذهنه أنه قارن بين المجتمعات الحيوانية والبشرية من حيث الجوهر والعوارض ،فاجتماع الحيوان يكون مدفوعا إليه بالفطرة فقط أما الاجتماع الإنساني فالدوافع إليه هي الفطرة والعقل معاً.

وقد تمكن ابن خلدون بفضل تعمقه في دراسة هذه الأمور أن يضع أول أساس للفلسفة الاجتماعية.

ثانياً: موضوع علم العمران وفروعه وأغراضه.

موضوع علم العمران هو دراسة الاجتماع الإنساني وظواهره وهو في نظر ابن خلدون علم وضعي لأنه لم يعده من بين العلوم العقلية، ولم يهتم ابن خلدون بتعريف الظاهرة الاجتماعية وإنما اكتفى بأن ضرب أمثلة لها تدلنا على أنه كان يعرف طبيعتها وخصائصها ولكنه لم يكشف عنها نظرياً.

هذا ونجد أن ابن خلدون قد قسم موضوع علم الاجتماع إلى أقسام يضم كل قسم منها طائفة غير بسيطة من الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها ووقف على كل طائفة منها فصلا أو أكثر من مقدمته، وبالتأمل في هذه الفصول يتبين لنا أنه قسم ظواهر الاجتماع إلى قسمين أساسيين وهما:-

القسم الأول بحوث تتعلق ببنية المجتمع أو (المورفولوجيا): وهي البحوث التي تتناول دراسة الظواهر المتصلة بالبدو والحضر وأصول المدنيات القديمة التي وقف عليها الفصل الثاني، وتوزيع أفراد الإنسانية على المساحة التي تشغلها

والنظم التي تسير عليها المجتمعات في هجرة أفرادها وفى كثافتهم وتخلخلهم والمسائل التي تتعلق بتخطيط المدن والقرى.

والقسم الثاني هو دراسة النظم العمرانية: وتختلف هذه النظم باختلاف وجود النشاط العمراني ولذلك نراه يدرس كل طائفة منها على حده، من ذلك انه درس الظواهر السياسية في الفصل الثالث في مقدمته، ودرس الظواهر الاقتصادية في الفصل الخامس، ودرس الظواهر التربوية في الفصل السادس وعرض في ثنايا دراساته إلى بحث طائفة كبيرة من الظواهر العائلية والأخلاقية والجمالية والدينية واللغوية وظواهر أخرى تتعلق بالسحر والشعوذة والرقي والتمائم.

أما فيما يتعلق بالأغراض التي كان ابن خلدون يرمي إليها من إنشاء علم الاجتماع فهي نوعان:

- أغراض مباشرة: هي أغراض نظرية تتلخص في ضرورة الكشف عن طبيعة الظواهر الاجتماعية ووظائفها والوقوف على القوانين التي تخضع لها.

- وأغراض غير مباشرة: فتتلخص في الانتفاع بحقائق الاجتماع وقوانينه في تصحيح حقائق التاريخ وتعليل حوادثه أي أن ثمرة علم الاجتماع هي تصحيح الأخبار التاريخية من الأخبار الكاذبة والخاطئة.

التقسيم المنهجي لظواهر علم الاجتماع

ظواهر تتعلق بالنظم العمرانية: النظم الاجتماعية

ظواهر تتعلق ببنية المجتمع أو ما سماه فيما بعد دور كهايم "المورفولوجيا الاجتماعية"

المورفولوجيا الاجتماعية: علم البنية الاجتماعية، وهي مجموعة الظواهر التي تتصل بالبدو والحضر وأصول المدنيات القديمة وتوزيع أفراد الإنسانية على المساحة التي تشغلها، والنظم التي تتبعها وشروط مواقعها ووظائفها

أهداف علم الاجتماع:

دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن العلاقات التي تربط بينها وكذلك القوانين الثابتة التي تحكمها. لأن الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات، ولا حسب ما يريده الأفراد بل وفق قوانين ثابتة. وهذا يمكن أن يكون:

أ) هدفا مباشرا يقوم على أسس نظرية هدفها الكشف عن طبيعة الظواهر الاجتماعية ووظائفها.

ب) هدفا غير مباشر يتلخص في الانتفاع بحقائق الاجتماع وقوانينه في تصحيح حقائق التاريخ وتعليل حوادثه

علم الاجتماع علم متكامل، علم مستقل بنفسه، وموضوعه العمران البشري والاجتماع الإنساني، وما يلحق المجتمع من العوارض الذاتية أي "القوانين".

- يدرس الظواهر الاجتماعية في حالة سكونها/استقرارها (استاتيكيتها)

- درس الظواهر الاجتماعية في حالة ديناميكيتها/تطورها

فكأن ابن خلدون يقرر أن علم الاجتماع علم نظري تقريري يرمى إلى شرح ما هو كائن محاولا الوقوف على طبيعة الحقائق المدروسة وعناصرها ووظائفها والقوانين التي يخضع لها، وله جانب فني تطبيقي يرمى إلى الانتفاع بنتائج هذه الدراسة العلمية التحليلية في تصحيح التاريخ.

naderalmafa

ثالثاً: أسس الدراسة ومنهج البحث:

كانت غاية ابن خلدون الاجتماعية هي أن يشرح ظواهر العمران بمختلف أنواعها وخاصة ما يتعلق منها بناحية التطور الاجتماعي.

فرأى أنه من الضروري أن يبدأ بدراسة القوانين التي يحدث التطور طبقا لها.

هناك قوانين تسير الحركة الاجتماعية و يجب الوصول إلى هذه القوانين ويجب أن ندرس المجتمع البشرى في ذاته.

هذه هي الدراسة التي جعل منها ابن خلدون موضوعا لعلم مستقل هو علم الاجتماع.

وظيفة علم الاجتماع إذن: هي الكشف عن القوانين التي تسير وفقا لهذه الظواهر العمرانية في نشأتها وتطورها والوظائف التي تؤديها.

وللوصول إلى هذه الغايات النظرية، اتبع ابن خلدون في بحوثه ودراساته منهجا مختلفا لمناهج سابقيه، قائما على دعائم من:

- الملاحظة والتجربة الشخصية. - والمنطق العلمي. - واستقراء الحوادث. – التحليل. – والمقارنة.

ومنهج ابن خلدون ينقسم إلى قسمين وهما:-

القسم الأول نقدي سلبي: وهو القسم الذى يعرض فيه أخطاء من سبقه من المؤرخين ويطلب فيه تجريد عقل الباحث أو المؤرخ من هذا الأخطاء.

والقسم الثاني وصفي تحليلي أو ايجابي: ويقوم على إتباع الأسس المنهجية التي ترشد الباحث في الوصول إلى القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية.

في القسم الأول وهو القسم النقدي فقد عدد فيه ابن خلدون أخطاء المؤرخين، ولخص ابن خلدون الأسباب التي أدت بهم إلى هذه الأخطاء في الأمور الآتية:

أولاً: الاقتصار في الأخبار على مجرد النقل لأن الاعتماد على النقل وعدم النظر في أصول العادة وقواعد السياسة وشئون المجتمع وعدم قياس الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب، ولابد أن يؤدى بنا إلى الابتعاد والحياد عن جهة الصواب.

ثانياً: التشيع للآراء والمذاهب لأن هذا التشيع يجرد الباحث من حريته ويجعله أسيرا لهذا الرأي.

ثالثاً: الثقة بالناقلين وتصديق الباحث لما يرويه ثقافة المؤرخين، فيجب على الباحث ألا يركن إلى هذه الثقة بل ينبغي أن يطبق على الحوادث التاريخية الطريقة النقدية بناحيتيها، النقد الداخلي والنقد الخارجي، بمعنى أنه يجب التأكد من أمانة الراوي وصدقه وسلامة ذهنه وطهارة عقيدته ومتانة خلقه وقيمته الشخصية. وهذه كلها مقومات النقد الخارجي، ومن ناحية ثانية يجب مناقشة الرواية في ذاتها ومعرفة إلى أي مدي تتفق مع طبائع الأمور ومع الظروف والملابسات التي يحكيها الراوي ومناقشة كل ما يتعلق بمادة الرواية، وهذه كلها من أهم مقومات النقد الداخلي.

رابعاً: ومن الأخطاء ما يسميه ابن خلدون بالذهول عن المقاصد، فكثير من المؤرخين أو الناقدين يجهلون الغاية مما يسمونه من الناس ويذهبون في صدد الروايات مذاهب شتى من الظن والحدس والتخمين ويغفلون الغاية المنشودة من قص الحوادث أو سرد الروايات فيقعون في الكذب لا محالة.

خامساً: ومن بين الأخطاء تقرب العلماء والمؤرخين من أصحاب المراتب العالية والسلطات بالثناء والمديح، فقد أدى هذا التقرب إلى أنهم قلبوا الحقائق وأفسدوا الوقائع وذلك في سبيل حصولهم علي الجاه. فجاءت بحوثهم مناقضة لما تراه ضمائرهم.

سادساً: أما الخطأ الفادح في نظر ابن خلدون فهو جهل المؤرخين بطبائع الأحوال في العمران. لأنه يجعل الإلمام بطبائع العمران وأحواله المحك الأساسي لمعرفة حقيقة الحوادث وتمحيصها.

هذه هي أهم الأخطاء التي أودت بالمؤرخين إلى الزلل.

ولا يستقيم التاريخ ولا يستقيم الفكر في شؤون العمران إذا تخلصنا من آثار هذه الأخطاء وجردنا العقل من شوائبها.

وهذا القسم النقدي مهم جدا للمؤرخ وعالم الاجتماع على السواء.

وقد كان ابن خلدون موفقا في تقرير هذه الأخطاء، فقد دلّ تحليله على عقلية دقيقة، وعلى أنه أمام مدرسة جديدة في البحث والدراسة.

إن ثروة الأمم بكثرة سكانها المحبين للعمل ، والمجيدين له ، المبدعين فيه .،، "ابن خلدون"

hadeel almafea